لغة التفسير الصوفي ومعاناة التلقي

د. غانم حنجار[1]

1. أصل الإشكال:

من الثابت المعروف أن القرآن خطاب انفتحت آفاقه على الفهم والقراءة والاستنباط. وما كان عجبا أن تتوزّعه المقاربات بقناعات متمايزة، ورؤى متنوّعة، ذلك أنّ أمر الاختلاف طبيعة في أصل الأشياء.

ولكن حين تصير اللّغة أداة كشف عمّا انطوت عليه الطبائع والعقول، فيعني ذلك أن اللغة مستأمنة على نقل المحمولات الفكرية المنتجة، والسّمات النفسية لأحوال الذّات القارئة ضمن سياقات محددة الدال والمجال.

فقد يُفسَّر القرآن ببيانيّة تضمن اللغة فيه سّر الفصاحة، والجمال .

وقد ينظر فيه - أي القرآن - بحاسّة برهانيّة تضبط الأحكام والتقريرات، وتحدّ المقولات على قدر من الّصرامة المنطقية. لكن حين يُتولّى أمر التفسير بخلفية عرفانية - لها شروطها الثقافية والمنهجية في تعارفات المتصوّفة – . هل من الضرورة بمكان أن يشترط على المفسر حينئذ معايشة فكرة التصوف، معايشة سلوكية، وبمواجيد العارف السالك.أم يكفي فيه استحضار ثقافة كلامية وفق ما تمليه قوانين الخطاب الصوفي على مستوى المقولات والرؤى والعبارات؟

فالذي يُلاحظ ابتداء أنّ اللغة الصوفية في تِبيان المعاني القرآنية ظلّت ولا تزال تعاني المروق والتهيب، وعدم الاختراق، لفرط ما لحقها من قلة الدراية بأسرار حروفها، ولبعد المتأولين عن حقلها من جهة، ولربما لخروج بعض أهل الشطح عن مقامات التحفظ إلى مقامات البوح بالمستور من جهة ثانية. فكان لهذه الأسباب مجتمعة ذريعة في وجود نمط من اللغة تصنع خطابا هو للفتنة والفرقة أقرب منه إلى الوفاق والقبول.

فإلى أي مدى يكون التفسير الصوفي أمرا اعتياديا يستجيب لقراءة المخالفين؟ ومتى تصير لغة العرفاني فاقدة للصّدمة يسهل معها التواصل نحو كلّ مقصد؟ فإذا كانت اللغة في المنتهى

---

[1]- من جامعة الجزائر.

المعيار الذي يُحاكم النص على أساسها فإن كلّ قراءة مثمرة للعبارة أو النص لا ينبغي تجاوزها لتلك الخصوصية اللغوية التي باتت تنطوي عليها لغة التفسير الصوفي.

2. التفسير الصوفي:

❖ المنطلق والمفهوم:

يعد هذا الاتجاه من أشد التفاسير خصوصية، وأكثرها إثارة للجدل بوصفه منتوج فكر تميز على مستوى الخطاب الديني، إلى حد اعتبر ثروة روحية في الإسلام.

وإذا كان علماء الكلام ينزعون في تفسير القرآن إلى القوة العقلية لاستكناه الحقائق. فإن علماء المتصوفة يقفون أمام اللفظ القرآني بوصفه إشارات دالة، وسيلتها الذوق ومحلها القلب. ومن هنا جعلوا القلب وحده عين الحقيقة. حتى قالوا:« من طلب القلب بالعقل فما عرف[2] »

ذلك في يقينهم أن للمعاني القرآنية أسرارا قارة في بواطن[3] الكلم تحيل إليها ظواهره، ولا تزال متعصية إلا على أصحاب المواجيد من أرباب السلوك والعرفان، بفضل ما أوتوا من الفيض الرباني، والإشراق الإلهي[4] والذوق، والتجربة، والحدس.

وهذا الادعاء خلق جوا خلافيا بين الناظرين في أعمالهم. فقد أنكر عليهم البعض[5] بحجة أن النص الصوفي في التفسير خطاب فتنة، لخلوه من المعايير العلمية المتعارف عليها في مضمار التفسير[6] . وتقبله فريق مضاد بمزيد من الحماسة، حتى أفهم الناس أن الصوفية هم وحدهم الناطقون عن الحق بالحق. يقول ابن عربي(ت638هـ) : « اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أنه ما

---

[2]- محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية. قدم له محمد عبد الرحمن المرسلي. إعداد مكتب التحقيق دار إحياء التراث الإسلامي. بيروت. لبنان. ط1. د.ت. ج3. ص198.

[3]- يستند الصوفية في تناولهم ثنائية الظاهر والباطن إلى الحديث النبوي القائل:« لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع » وقد أسهب ابن عربي في تحليل هذه الأركان ضمن خطابه العرفاني.

[4]- يقول المستشرق تكلس:« إن التفسير الصوفي يعتمد على نظرية الفيض الإلهي. فالصوفي من خلال رياضة نفسية يتبعها تهيأ له من خلالها درجة من السمو الروحي. بحيث تظهر له معاني القرآن وعليه يمكن القول: بأن مصدر المعرفة عند الصوفية يتأتى بالإشراق والانكشاف والإلهام » ينظر السيد أحمد عبد الغفار. التفسير والنص. دار المعرفة الجامعية. ط2002. ص215.

[5]- ينظر نصر حامد أبو زيد. فلسفة التأويل. دراسة في تأويل القرآن عند أبي عربي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط4.1998. ص11 وما بعدها.

[6]- اشترط أهل العلم خمسة شروط لقبول التفسير الإشاري هي:

« 1- أن لا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم. 2- أن لا يدعى أنه المراد وحده دون الظاهر. 3- أن لا يكون تأويلا بعيدا سخيفا كتفسير بعضهم لقوله تعالى: " وإن الله لمع المحسنين" بجعل كلمة " لمع" فعلا ماضيا وكلمة " المحسنين" مفعولا به. 4- أن لا يكون له معارض شرعي أو عقلي. 5- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده » .

خلق الله أشق، ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته، العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه، وفهمهم كتابه، وإشارات خطابه.

ولما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم عدل أصحابنا إلى الإشارات كما عدلت مريم عليها السلام من أجل أهل الإفك والإلحاد إلى الإشارة. فكلا منهم -رضي الله عنهم-في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة[7] ».

3. لغة التفسير ومبدأ الأخذ بالإشارة:

إن الناظر في أعمال السادة الصوفية يجد نفسه إزاء تفسير يتسع نصه للغة فاتنة تجاوز مستواها أفق انتظار القارئ غير العارف، لفرط ما حشيت به من رمزية ولطافة وروحانية، أقنعت الصوفي بخيار التحرر من حدود ما تمنحه اللغة التقليدية الواقعية من دلائل وأبعاد متناهية.

وهو في الوقت نفسه يجد في هذا التجرؤ على اختراق سياج اللغة متنفسا لتطلعاته اللامتناهية في بلوغ المقصود. لأن " **العبارة**" قد ضاقت دونه، ولم تعد مؤهلة لتحمل خواطره الجامحة، وليس له ها هنا من سبيل سوى " **الإشارة**".« كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة[8] ».

فهذا الجنوح إلى الإشارة وتقديمها عن واقع العبارة أحدث أزمة على مستوى التواصل في حقل التلقي والقراءة. ولا سيما عند أصحاب الرسوم [9]-كما ينعتهم العرفانيون- ممن سلموا العقل مقاليد القضاء في أسرار الحقائق المطلوبة لذاتها وكان حتما أن ينجم عن هذا الابتداع الخاص توتر وصل إلى حد القطيعة والصدام والرجم بالظن.[10]

وبخاصة حين يتعلق الأمر بفهم النص الديني بشقيه: القرآن والحديث « من لم يقف على إشاراتنا لم يفهم عباراتنا[11] » .

---

[7]- محي الدين ابن عربي. رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن. ط1989. دمشق. ج15/1.

[8]- حفيف الدين. تلمسان. شرح مواقف النفري. دراسة وتحقيق جمال مرزوقي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. ط2000. ص583.

[9]- أصحاب الرسوم هم علماء الظاهر من الفقهاء.

[10]- مثال ذلك ما لحق أساطين الصوفية من تكفير وهجران وقتل على طريقة أبي منصور الحلاج والسهروردي وغيرهما.

[11]- أبو منصور الحلاج. أخبار الحلاج ضمن الديوان. وضع حواشيه وعلق عليه محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط2.2002. ص57.

يقول الأمير عبد القادر: « ربما سمع العامي المحجوب أحوال بعض العارفين بالله، وكلامهم وما منَّ الله تعالى عليهم به من العلوم الوهبية، والأسرار الربانية. فيتعلق بذلك على غير وجهه،وطريقة الموصل إليه[12] » ، فحقا إن مقاربتهم النص القرآني- وفق مبدأ الرمز والإشارة- نفت عن أعمالهم صفة التفسير من قبل مناوئيهم. فهذا الزرقاني ينقل عن الزركشي قوله: « كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل: إنه ليس بتفسير وإنما هو معان ومواجيد[13] يجدونها عند التلاوة. كقول بعضهم في قوله تعالى:« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار»[14] . إن المراد بالنفس يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هي القرب. وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه. وقال ابن الصلاح في فتاويه: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق في التفسير. فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر [15]» .

فهم يجنحون إلى باطن العبارة بالإشارة، وهذا لا يعني مطلقا أنهم باطنيون يرفضون ظاهر اللغة، وما هي عليه من مجاز أو حقيقة كما يفعل باطنية الشيعة، بل يتخذون من الظاهر وليجة إلى الباطن « ولذلك يصر ابن عربي على ضرورة الجمع بين الظاهر والباطن في فهم النص. لأن الظاهر يمثل الرمز الذي لا يمكن النفاذ إلى المرموز إليه الباطن إلا من خلاله وعلى ذلك. " فليس من حق من لا معرفة له بمآخذ الله أن يتخيل أنهم يرمون بالظواهر فينسبونها إلى الباطنية، وحاشاهم من ذلك بل هم القائلون بالطرفين" ».[16]

والأمر كله في النهاية راجع إلى طبيعة لغتهم. فهم قوم خصوا أنفسهم بلغة ليست مما تعارف عليه المتواضعون. لغة تجردت من مداليلها العرفية، وشحنت بدلالات افتقدت في القاموس العادي [17]. ومن هنا وقع الخلاف واتسعت المسافة بين النص الصوفي، والقارئ العام.

4. عينة من تفسير محي الدين بن عربي:

إن المفسر العرفاني لا يتخلى عن قاموسه اللفظي. فهو لا يزال يحرص على الزج بمقولاته الخاصة به في معرض الشرح والتعريف بمقاصد الآيات، والألفاظ القرآنية على مبدأ المقابلة بين ما هو قرآن، وما هو مواجيد قلبية. حتى يضفي المشروعية الحقة على صدق ما وصل إليه

---

[12]- الأمير عبد القادر.المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد.دار اليقظة العربية.سوريا.ط.2.1967. ج1/69.

[13]- وهو من الوجد ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع. وقيل: هو بروق تلمع ثم تخمد سريعا". ينظر علي زيعور. العقلية الصوفية ونفسانية التصوف. دار الطليعة. بيروت. ط.1.1979. ص181.

[14]- سورة التوبة، آية:123

[15]- الزرقاني. مناهل العرفان في علوم القرآن. ص437.

[16]- نصر حامد أبو زيد. فلسفة التأويل. ص269.

[17]- ينظر أحمد بوزيان. شعرية الخطاب الصوفي في الموروث العربي. رسالة دكتوراه- مخطوط- جامعة تلمسان. إشراف الدكتور محمد عباس.2006.ص 4 .

من الأسرار، ولاسيما وهو يرى أن كل ما ناله من عرفان إنما هو وهب، وتعليم إلهي تلقاه كما يتلقى النبي الوحي سواء بسواء. « فلله عباد تولى تعليمهم في سرائرهم بما أنزله في كتبه، وعلى ألسنة رسله، وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم، الذي لا يشك مؤمن في كمال علمه، ولا غير مؤمن. فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه، بإلهامه، وإفهامه إياهم...فأصحابنا ما اصطلحوا على ما جاء به شرح كتاب الله بالإشارة دون غيرها من الألفاظ إلا بتعليم إلهي[18] » .

فابن عربي لا ينظر في الحديث النبوي القائل: « لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع»[19] إلا في إطار تعميم هذا التقسيم على سائر الموجودات في الكون[20]. وعلى هذا الأساس يجري تصنيف الرجال في مجال تقابلي وفق ما تتجلى حقيقته في كتاب الله حيث يقول:« الرجال أربعة: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وهم رجال الظاهر، ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالى، ولهم المشورة، ورجال الأعراف. وهم رجال الحد. قال تعالى: « وعلى الأعراف رجال»[21] وهم أهل الشم والتمييز والسراح عن الأوصاف، فلا صفة لهم. كان منهم أبو اليزيد البسطامي. ورجال إذا دعاهم الحق يأتونه رجالا لسرعة الإجابة لا يركبون. قال تعالى: « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا»[22] وهم رجال المطلع. فرجال الظاهر لهم التصرف في عالم الملك والشهادة، وأما رجال الباطن فهم الذين لهم التصرف في عالم الغيب والملكوت فيستنزلون الأرواح العلوية بهممهم فيما يريدونه. أعني أرواح الكواكب لا أرواح الملائكة. فيفتح لهؤلاء الرجال في بطن الكتب المنزلة، والصحف المطهرة، وكلام العالم كله ونظم الحروف والأسماء من حيث معانيها ما لا يمكن لغيرهم اختصاصا إلهيا. وأما رجال الحد فهم الذين لهم التصرف في عالم الأرواح النارية، وهو عالم البرزخ والجبروت، وهم رجال الأعراف. والأعراف صور السعداء ودار الأشقياء. وهؤلاء الرجال أسعد الناس بمعرفة هذه الصور. ولهم في كل حضرة دخول واستشراف. وأما رجال المطلع فهم الذين لهم التصرف في الأسماء الإلهية، فيستنزلون بها ما شاء الله وهذا ليس لغيرهم. وهو أعظم الرجال [23] » .

فهذه الشروح على نمط الموازاة والمقابلة بالطريقة الإشارية تشعرنا أن الصوفي له من سعة الفهم في التعامل مع الخطاب الأقدس ما لا نراه عند غيره من علماء التفسير وبخاصة ممن يتقيدون بحدود العبارة، وفق ما تقتضي به آفاق الاستعمال اللغوي الموروث بقوة التقليد

---

[18]- ابن عربي. رحمة من الرحمن في تفسير وإشارت القرآن. ج16/1.

[19]- الزرقاني. مناهل العرفان. ص438.

[20]- ينظر تفصيل ذلك عند نصر حامد أبو زيد. فلسفة التأويل. ص276 وما بعدها.

[21]- الأعراف. آية: 46.

[22]- الحج. آية: 27.

[23]- نصر حامد أبو زيد. فلسفة التأويل. ص271.

والتعارف. وهو ما جعل تفاسيرهم في العموم بعيدة التناول عن أيادي القراء، بل ساقطة من اعتبارها تفاسير ممدوحة لما تضمنته من إلغاز، وطلاسم وأسرار الحروف... تدور كلها في فلك من الجو الإشاري المستغرق في الباطنية. يقول ابن عربي:" **تفسير من باب الإشارة** "« الألف من (آلم) إشارة إلى التوحيد فمهما نظرت إلى الوجود جمعا وتفصيلا وجدت التوحيد يصحبه، لا يفارقه البتة صحبة الواحد للأعداد. فالواحد ليس العدد وهو عين العدد، أي به ظهر العدد. فـ "الألف" ليس من الحروف عند من شم رائحة من الحقائق، ولكن قد سمته العامة حرفا. فإذا قال المحقق: إنه حرف فإنما يقول ذلك على سبيل التجوز في العبارة، ومقام الألف مقام الجمع له من أسماء الله،وله من الصفات القيومية، وله المراتب كلها، وله مجموع عالم الحروف ومراتبها ليس فيها ولا خارجا عنها نقطة الدائرة ومحيطها. ومركب العوالم وبسيطها، و"الميم" للملك الذي لا يهلك و"اللام" بينهما واسطة لتكون رابطة بينهما. فالألف إشارة إلى ذات منزهة عن قيام الحركات بها، واللام إشارة إلى الصفات التي لا تعقل إلا بالأفعال. لذلك اتصل اللام بالميم الذي هو أثرها وفعلها» [24].

فنلحظ في هذا الفهم معالم الشخصية العارفة المحيطة بعلوم الحساب، والفلك والهندسة والتوحيد. كما نلحظ أن النص التفسيري ههنا ليس كبقية النصوص الاعتيادية، التي تشيع فيها ألوان الفهم الإخباري القائم على سرد الروايات، والأخبار ولا نجد تلك التخريجات اللغوية المراد بها جمالية العبارة والصورة، على النحو الذي هو محقق في تفاسير أهل المأثور، والإعجاز.

الخلاصة:

إن رجال الصوفية يعولون على التأويل القلبي، ومن ثم سائر إدراكاتهم إنما هي تجليات ومواجيد لا يصيبها إلا المتعرضون لنفحات الفتح الفياض على حد ما يعتقدون بفهم متجدد لمنطوق إلهي يتمتع دوما بصفة التلادة والقدم . "أهل طريقتنا – رضي الله عنهم- ما ادّعوا الإتيان بشيء في الدين جديد وإنما ادّعوا الفهم الجديد في الدين التليد[25] » . [22]

[24]- ابن عربي. رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن. ج1/46-47.

[25]- الأمير عبد القادر. المواقف. ج1/26.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أبو منصور الحلاج. أخبار الحلاج ضمن الديوان. وضع حواشيه وعلق عليه محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط2.2002.

3- أحمد بوزيان. شعرية الخطاب الصوفي في الموروث العربي. رسالة دكتوراه- مخطوط- جامعة تلمسان. إشراف الدكتور محمد عباس.2006.

4- الأمير عبد القادر. المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد.دار اليقظة العربية. سوريا. ط2.1967. ج1.

5- حفيف الدين. تلمسان. شرح مواقف النفري. دراسة وتحقيق جمال مرزوقي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. ط2000.

6- السيد أحمد عبد الغفار. التفسير والنص. دار المعرفة الجامعية. ط2002.

7- محمد عبد العظيم الزرقاني. مناهل العرفان في علوم القرآن. لبنان. دار المدارس الإسلامي. ط1.2001.

8- علي زيعور. العقلية الصوفية ونفسانية التصوف. دار الطليعة. بيروت. ط1.1979.

9- محيي الدين بن عربي. الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية. قدم له محمد عبد الرحمن المرسلي. إعداد مكتب التحقيق دار إحياء التراث الإسلامي. بيروت. لبنان. ط1. د.ت. ج3.

10- محي الدين ابن عربي. رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن. ط1989. دمشق. ج1.

11- نصر حامد أبو زيد. فلسفة التأويل. دراسة في تأويل القرآن عند أبي عربي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط4.1998.